كعب بن زهير[1]
بين التقليد والتجديد

د . محمد عويس

اتفق الرواة على ان الشعر لم يتصل في ولد أحد في الجاهلية ، اتصاله في ولد زهير فكعب وأبوه وجده وابو سلمى وعمته سلمى والخنساء[2] وخال ابيه (بشامة بن الغدير) وابنا عمته (تماضر) الخنساء وأخوها صخر وابنا بنته سلمى " العوتان وغريض ، وأخو جير وولده عقبه (الضرب) ، وحفيده العوام بن عقبة ـ كلهم شعراء . وقد تلقن كعب الشعر من أبيه ، مثله في ذلك مثل أخيه بجير ومثل الحطيئة ، ويذكر لنا الرواة الطريقة التي كان يخرج بها زهير تلاميذه من أهل بيتوبيرهم . وتقوم هذه الطريقة على ماكان يفعله زهير بتلاميذه من تحفيظهم شعره وشعر غيره من الجاهليين حتى تتضح موهبة الشعر فيهم ، ومن ثم لم يكن مقبولا من كعب أن يقول الشعر وهو صغير ، فكان أبوه ينهيه ويضربه مخافة أن يقول مالا خير فيه[3] .

ونراه يوجهه الى نظم الشعر الجيد ، فيقولون أنه كان يخرج به الى الصحراء فيلقي عليه بيتا أو شطرا ويطالب اليه أن يجيزه ثم يناله وتد رئيا على صوغ الشعر ونظمه[4] .

والذي لاشك فيه أن كعب بن زهير كان تلميذا وابنا وفيا للمدرسة الشعرية التي كان أبوه عميدتها وهي مدرسة الصنعة التي وأيناها تقابل مدرسة الطبع في الشعر الجاهلي ، ومن ثم فهو يحظى من النقاد والقدماء بمكانة خاصة ، رأيناهم يصفون شعره بقوة

---

(١) ترجمته في طبقات فحول الشعراء لابن سلام ص ٨٣ والشعر والشعراء لابن قتيبة ١/ ٨٦ و ١٤٣ والأغاني (ساسي) ١٥/ ١٤٠ والسيرة لابن هشام ٤/ ١٤٤ ، والاستيعاب لابن عبد البر ٢٢٦ وأسد الغابة ٤/ ٢٤٠ والاصابة ٥/ ٣٠٢ ومعجم الشعراء للمرزباني (ط . القدسي القاهرة ١٣٥٤ هـ) ٢٣٠ وخزانة الادب ، ١/ ٢٧٥ و ٤/ ١١ ولد ديوان (ط ـ دار الكتب سنعتمد عليه في المراجعة .

(٢) هي غير الخنساء المعروفة .

(٣) راجع ديوان زهير (ط . دار الكتب) ص ٢٥٦ .

(٤) راجع الأغاني (ساسي) جـ ١٥ ص ١٤١ وأمالي المرتضى (طبع الحلبي) جـ ١ ص ٩ .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

التلاعب وجزالة اللفظ وسمو المعنى وكلها من خصائص الصنعة فى شعر مدرسة زهير . ويذكرون أنه سبق الى مذاهب فى الشعر أخذها عنه الشعراء (١) .

وقصة اسلام كعب مشهورة ومروية فى كتب السيرة (٢) ، اذ أسلم أخوه بجير فهجاه وقرظة حينئذ بقصيدة آذى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله (٣) :

ألا أبلغا عنى بجيرا رسالة ... فهل لك فيما قلت بالخيف هل لكا

شربت مع المأمون كأسا روية ... فأنهلك المأمون منها وعلكا (٤)

وخالفت أسباب الهدى وتبعته ... على أى شئ ويب غيرك دلكا

على خلق لم تلف أما ولا أبا ... عليه ولم تدرك عليه أخا لكا

ويقال أن الرسول سمع بهذا الشعر فتوعده ، وما زال كعب على وثنيته حتى فتحت مكة وانصرف الرسول صلى الله عليه وسلم من الطائف ، فدعاه بجير حينئذ الى الاسلام لينجو من القتل ، وطلب منه أن يقدم على رسول الله تائبا . وشرح الله صدره للاسلام ، فقدم المدينة وبدأ بأبى بكر ، فوقع من نفسه " فلما سلم للنبى صلى الله عليه وسلم من صلاة الصبح جاء به وهو متلثم بعمامته فقال : يارسول الله ، هذا رجل جاء يبايعك على الاسلام صلى الله عليه وسلم ، يده فحسر كعب عن وجهه ، وقال : هذا مقام العائذ بك يارسول الله ، أنا كعب بن زهير . فتجهمه الأنصار وقاموا له ، لذكره — قبل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولحقت المهاجرة أن يسلم قبله النبى صلى الله عليه وسلم فآمنه رسول الله (٥) .

وحسن اسلام كعب وامتد به العمر حتى زمن معاوية بن أبى سفيان . وخلف لنا شعرا كثيرا يقدر بـ ٣ ديوانه ، والحق أننا نجد فى هذا الشعر الذى أنشده ، كعب فى

---

(١) راجع ديوان كعب ص ٥٢ فى قصيدته اللامية " ألا بكرت عرس .. " التى يذكر فيها " الشراب والذهب " وقارن ما جاء فى ديوان الطرماح (طبع أوربا) ص ١٢٧ وديوان ذى الرمة (طبع أوربا) ص ٢٩٢ فى هذا المعنى .

(٢) ابن هشام ط ٤ ص ١٤٤ وراجع الاستيعاب ص ٢٢٦ والأغانى (ساسى) جـ ١٥ ص ١٤٢ .

(٣) الديوان ص ٣

(٤) كانت قريش تسمى النبى صلى الله عليه وسلم المأمون والأمين .

(٥) طبقات الشعراء لابن سلام ص ٨٣ والشعر والشعراء لابن قتيبة جـ ١ ص ١٠٤ والأغانى ص ١٤٢ .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

صدر الاسلام ، صورة حقيقية للصنعة الشعرية ، التى رأيناها من قبل فى شعر زهير . انظر الى مدحته الخالدة التى أنشدها معتذرا للرسول صلى الله عليه وسلم ، تجده يفتحها فاتحة تقليدية يصف فيها سعاد ويذكر فراقها وأن قلبه مرتهن عندها فيد ليس له فكاك ، وهو فى ذلك يتأثر بمذهب أبيه فى مقدمات أشعاره ، يقول كعب(١) .

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول ... متيم اثرها لم يفد مكبول

انظر الى قول زهير فى هذا المعنى من قبل(٢) :

وفارقتك برهن لا فكاك لـــه ... يوم الوداع فأمسى الرهن غلقا

ونلحظ التأثر الواضح بين الحاح كعب فى وصف سعاد وتشبيهها بالظبى وتشبيـــه ريقها بالخمر ، بنفس المعانى التى أوردها زهير فى القصيدة المذكورة ، يقول كعب :

وما سعاد غداة البين اذ برزت ... ألا أغن غضيض الطرف مكحول

تجلو عوارض ذى ظلم اذا ابتسمت ... كأنه منهل بالراح معلـــول

شجت بذى شبم من ماء محنيـــة ... صاف بأبطح أضحى وهو مشمول

تجلو الرياح القذى عنه وأفرطـــه ... من صوب سارية بيض يعالـيـــل

وانظر الى قول زهير يحمل هذه المعانى من قبل :

قامت تراءى بذى ضال لتحزننى ... ولا سعالة أن يشتاق من عشقا

يجيد مغزلة أدماء خاذلـــة ... من الظباء تراعى شادنا خرقا

كأن ريقها بعد الكرى اغتبقـــت ... من طيب الراح لما يعد آن عتقا

شبح السقاة على ناجودها شبما ... من ماء لينة لا طرقا ولا رنقـــا

فسعاد عن كعب كأسماء عند زهير ، تشبه الظبى وريقها يشبه الخمر الممزوجـــة بالماء البارد العذب مما يوضح تأثر كعب بالمعانى التى كانت تطبع شعر مدرسة الصنعة .

وبالمثل تأثر كعب أبيه فى الحديث عن اخلاف صاحبته لوعدها ، ولكن كعبا أطنب فى حديثه هنا عن أخلاق سعاد وتلونها كما تتلون الغول ، ويذكر أنها لا تمسك العهـــد الذى تقطعه الا كما تمسك الماء الغرابيل .

والذى لاشك فيه أن تمسك كعب بهذه المقدمة التقليدية وهو واقف بين يدى الرسول

---

(١) الديوان ص ٦

(٢) ديوان زهير ص ٢٣ .

(٣)

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

صلى الله عليه وسلم يفسر سيطرة تقاليد الصنعة الشعرية على شاعره . أنظر اليه يتبع هذه المقدمة الغزالية وصفه لناقته بنفس المعاني التي تردد ت في قصائد أبيه من قبل فهي ناقة مؤصلة طويلة العنق خفيفة وما شاكل هذه الأوصاف من مثل قوله :

ترى الغيوب بعيني مرد لهـــق ... اذا توجدت الحزان والميـــل
ضخم مقلدها فعم مقيدهـــــا ... في خلقها عن بنات الفحل تفضيل
حرف أخوها أبوها من مهجنـــه ... وعمها خالها قوداء شمليـــل
تمر مثل عسيب النخل ذا خصـــل ... في غارز لم تخونه الأجاليـــل

وما زال ينعت ناقته حتى يفرغ الى غرضه الرئيسي وهو الاعتذار للرسول صلى الله عليه وسلم ومدحه وقدم لهذا الاعتذار بعاطفة من الأبيات تصور خوفه وفزعه من الرسول حتى انتهى به الخوف الى اليأس ، وحتى ضاقت به الأرض ، وحتى لم يجد من السبيل ملجأ الا الرسول على أنه لم يكد يذكر أن الذي يتوعده هو رسول الله حتى تيقن أن العفو قريب وأمل .

ونجده يمتدح الرسول بنفس المعاني التي كان الشعراء الجاهليون يمتدحون بها سادتهم ، من مثل الحلم والعفو وسعة الخلق ، ويشبهه بالسيف المسلوح من حديد الهند ، وتراه يذهب في مديحه مذهب زهير يشبهه النبي بالليث ، كما شبه زهير هرم بن سنان بالأسد من قبيلة ، ونلمس في هذه الأبيات خيوطا اسلامية تثبت أن قائلها قد عقد العزم على الدخول في الدين الحنيف يقول :

كل ابن أنثى وان طالت سلامتـــه ... يوما على آلة حدباء محمـــول
أنبئت أن رسول الله أوعدنـــي ... والعفو عند رسول الله مأمـــول
مهلا هداك الذي أعطاك نافلـة الـ ... ـقرآن فيها مواعيظ وتفصيـــل
لاتأخذني بأقوال الوشاة ولـــم ... أذنب ولو كثرت عني الأقاويـــل
ان الرسول لنور يستضاء بـــه ... مهند من سيوف الله مسلـــول

ويتبع ذلك مدحا للمهاجرين قائلا :

في عصبة من قريش قال قائلهـــم ... ببطن مكة لما أسلموا زولـــوا
زالوا فما زال انكاس ولا كشـــف ... عند اللقاء ولا ميل معازيـــل

وهو في هذا المديح يتأثر تقاليد الصنعة الشعرية التي تستمد خيوطها من الحياة القبلية الجاهلية فتراه يمدح المهاجرين وكأنه يمدح قبيلة سيد من سادة العرب ، وأنظر الى قوله :

يمشون مشي الجمال الزهر يعصمهـــم ... ضرب اذا عرد السود التنابيـــل

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

وهو هنا يعرض بالأنصار لغلظتهم — كانت عليه — فأنكر المهاجرون ما قال ، وقالوا لم تحدثنا اذ هجوتهم ، ولم يقبلوا منه ذلك حتى أنشد شعرا يمتدح فيه الأنصار ، بمثل قوله (١) :

من سره كرم الحياة فلا يزل ... في مقنب من صالحي الأنصار

والباذلين نفوسهم لنبيهم ... يوم الهياج وقبة الجبار

ورثوا كما ورثت أسود خفية ... غلب الرقاب من الاسود ضواري

وهم اذا خيف النجوم فانهم ... للطارقين النازلين قرارى

والطاعمون الضيف حين يغشهم ... من لحم كوم كالهضاب عشار

والحق أننا نحس في أشعار كعب بن زهير تأثره بالمعاني الاسلامية ، ونظن أن وضوح المعاني الاسلامية في شعره يرجع الى طبيعة شعراء مدرسة الصنعة التي تلزمهم التروي في صوغ الشعر والتدقيق في بنائه ، ومن ثم كانت أمام شاعرية كعب فرصة الستروى أتاحت له التأثر بالمعاني الجديدة وصوغها في قوالب شعرية تحكمها التقاليد الفنية الشعرية الجاهلية .

وساعده على ذلك — دون شك — الاستقرار النفسي والأمن الذي أحسه بعد اسلامه فزال الروع عن نفسه وسرت السكينة مشاعره وصرفته بالايمان . وقد يفسر لنا ذلك ما شاع في شعره من مواعظ وحكم يستهدي فيها الذكر الحكيم ويصوره تأثره زهاد المسلمين الذين كانوا يكرهون أن يفكر الشخص منهم في رزقه ، بل كان منهم من يرى أن ذلك خطيئة (٢) . وذلك لا ينفي سيطرة التقاليد الفنية الجاهلية على أشعاره من حيث البناء الفني للقصيدة ، أنظر الى مدحته لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه — يفتتحها بحديث عن الديار ، ويخرج من هذا الحديث الى ناقته التي تحمله الى علي بن أبي طالب يصف سيره في المفاوز أثناء الليل ، وفي خاتمة القصيدة يأتي مديحه لعلي ويختلط فيه المعاني الجاهلية التقليدية بالصور والمعاني الاسلامية التي تأثر بها كعب ، فعلي رضي الله عنه من أصل عريق يمتد الى خير الناس النبي عليه الصلاة والسلام ، وهو رجل عادل والحق أن هذا الجزء من قصيدته يكاد ينفصل عن الجزء السابق الذي تحدث فيه عن الديار والناقة والرحلة ، مما يوضح منهجه في شعره الاسلامي ، اذ نراه يصوغ ما يتأثر به

---

(١) الديوان ص ٢٥

(٢) العصر الاسلامي : ص ٨٧ د . شوقي ضيف (ط . دار المعارف) وراجع الديوان ص ٢٢٩ .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

من معان اسلامية في اطار فني تحددت ملامحه من قبل في بدوية الصنعة التي وإياها في الشعر الجاهلي ، أنظر الى قوله في مقدمة قصيدته (١) :

هل حبل رملة قبل البين مبتـــور ... أم أنت بالعلم بعد الجهل معذور
ما يجمع الشوق ان دارينا شحطـــت ... وظنها في تداني الدار مهجـــور
نفاق بها وهي دا" لو تعلقنـــا ... كما اتفق بعباد الخمر خمـــور

وأنظر اليه في خاتمة القصيدة يمتدح عليا رضي الله عنه .. وتظهر في مديحه المؤثرات الاسلامية التي يستوحيها من القرآن الكريم ، مما يوضح طريقة في صوغ أشعاره ، فهـو لا يتعدى حدود البناء الفني الذي تعلمه في الجاهلية ، وهو أيضا يسجل مؤثرات المعاني الاسلامية السامية التي عبرت بها نفسه بعد أن شرح الله قلبه للاسلام ، يقول :

ظلم لطغاة الشرك يدوبهـــم ... حتى استقاموا دين الله منصـــور
بالعدل قمت أمينا حين خالفـــه ... أهل الهوى ودوو الأهواء والزور
يا خير من جعلت نعلا له قـــدم ... بعد النبي لديه الفخر مهجـــور
أعطاك ربك فضلا لا زوال لـــه ... من أين آتى له الأيام تغييـــر

وواضح تلاقانا الخيوط الاسلامية في النسيج التقليدي لأشعار كعب بن زهير بوجـه الرغم من قلة هذه الخيوط نسبيا ، إلا أنها تظل تجديدا واضحا في إطار التقاليد الفنية الموروثة ، وإياها في مديحه اذ استوحى من القرآن الكريم بعض المعاني والألفـاظ ، تحدث فيها عن الخالق جل وعز الذي يحمي الأنام ويحفظهم في ليلهم اذ هـم في نيامهم كالأموات ، ونظن أن مثل هذا المعنى لم يتطرق اليه شاعر جاهلي من قبل ، يقول (٢) :

فقلت بالرحمن لاشيء غيـــره ... يمين أمرئ بر ولا أتحلـــل (٣)
لأستمعن أعلى دريئي سلمـــا ... لا وجه الذي يحمي الأنام ويفعل (٤)
هو الحافظ الوسنان بالليل ميتـــا ... على أنه حي من النوم مثـــل (٥)

---

(١) الديوان ص ٢٥١
(٢) المصدر ص ٥٦
(٣) لا أتحلل : لا أستثني .
(٤) الدريئي : القرب الخالق .
(٥) الوسن : النـــوم .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

ولكعب قافية يدعو فيها قومه الى الاسلام دين البر والتقى ، ويذكر أنه سيظل ماحي يطلب منهم الدخول في العروة الوثقى جماعة قوية تهني المجد وتعلي من شأن الدعوة السامية فيد الله مع الجماعة ، ويذكرهم بما قطعوا على أنفسهم من عهود ، فالعهد أمانة ووديعة غالية ، ومثل هذه المعاني تدلنا على أن الشاعر أشربت نفسه بروح الاسلام ودعوته السامية ، واتضحت عنده قدرة الخالق عز وجل زعز وحقيقة المعتقد الديني السمح وما يبغيه من توحيد صفوف المؤمنين ، يقول (١) :

سأدعوهم جهدي الى البر والتقى ... وأمر العلا ما شايعتني الأصابع
فكونوا جميعا ما استطعتم فانه ... سيلبسكم ثوب من الله واسع
وقوموا فآسوا قومكم فأجمعوهم ... وكونوا يدا تهني العلا وتدافع
فان أنتم لم تفعلوا ما امرتكم ... فأوفوا بها ، ان العهود ودائع

لكن فكرة الشاعر عن الحياة الدنيا في ضوء ايمانه بالعقيدة الاسلامية السامية ، تتضح حين يحدثنا في قافية له عن خطوات في الحياة ، وهي خطرات تختلف عن تلك التي رأيناها في معلقة أبيه ، هنا يؤمن الشاعر بأن لكل انسان قدرا محتوما يأتيه لامحالة ، فالانسان ذاهب الى الفناء ، والمال لايبقى ، وكل شيء ، وهكذا الانسان في هذه الدنيا ، يصير الى الفناء مهما تأخر اجله حالا بعد حال ، وتقلب أحوال المرء في هذه الحياة أمر مقرر ، فكم من امرئ أحوجه مع الثراء الحزم ، وكم من عاجز أحمق أصابه الثراء ، فلا يحق للانسان أن يختبر القدر فالله يرزق عباده ، وما عند الناس ينفد ، أما ما عند الله فهو باق لايفنى ، ومثل هذه المعاني السامية تشكل نظرة جديدة الى حقيقة الانسان في الحياة الدنيا افتقدناها في الشعر الجاهلي ، فلم نصادف في الحكمة الجاهلية مثل هذه المعاني ، ولم يحدثنا شاعر في حكمته عن أنه لايعنيه أن يكون ذا مال أو معدما ، فهو فهو يثق في الله جل وعز القادر المانح الذي لاحد لمنحه وعطائه سبحانه وتعالى ، انما جاء هذا المعنى في صورة الحكمة عند كعب بن زهير بعد أن أضاء الاسلام قلبه وروحه ومشاعره فنثر ضياءه على معاني شعره ، يقول (٢)

---

(١) الديوان : ص ١١٢ .

(٢) الديوان : ص ٢٢٨ .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

أعلم أنى متى يأتنى قـــدرى ... فليس يجسه شح ولا شفـــق
بينا الفتى معجب بالعيش مغتبط ... اذا الفتى للمنايا مسلم غلـــق
والمرء والمال ينمى ثم يذهبـــه ... مر الدهور ويفنيه فينمحـــق
كالغصن بينا تراه ناعما هديـــا ... اذ هاج وانحت عن أفنانه الورق
كذلك المرء أن يغفله أجـــل ... يركب به طبق من بعده طبـــق
قد يعوز الحازم المحمود نيتـــه ... بعد الثراء ويثرى العاجز الحمق
فلا تخافى علينا الفقر وانتظـــرى ... فضل الذى بالغنى من عنده ثقى
ان يغن ماعندنا فالله يرزقنـــا ... ومن سوانا ولسنا نحن نرتـــزق

وعلى هذا النحو جاءت الخيوط الاسلامية فى معانى وألفاظ كعب بن زهير حين يتطرق الى موضوعى المديح والحكمة فى شعره خاصة ، وهى خيوط جديدة دون شك ، لكنها لم تكن خيوطا متنافرة فى نسيج قصيدته التقليدى الذى أحكم صنعته ، ومن هنا كان الامتزاج واضحا بين التقليد الفنى المتوارث وبين الألوان الجديدة فى القوالب الشعرية عنده ، ومن تقليده ، نراه فى شعره ، من وضوح النزعة التقريرية التى امتاز بها الشعر الجاهلى ، فهو يسجل فى شعره الأحداث التى تقع فى عصره بصورة تقريرية لامغالاة فيها ولا خيـــال ، فالحقائق تراها فى شعره واضحة من مثل ما كان يشيع فى الشعر الجاهلى من قبل ، وانظر الى شعره الذى يسجل أحداث يوم فتح مكة وغزوة حنين والطائف ، نجد هذه النزعـــة التقريرية واضحة ، من مثل قولـــه (١) :

نفى أهـــل الحملق يـــوم ج ... مزينه جهره وهو خفـــــاف
صحبنا بألف من سلـــــيم ... وألف من بنى عثمـــــان واف
جدوا أكتافهم ضربا وطعنـــــا ... ورميا بالعريشة اللطـــــاف
رميناهم بشبان وشيـــــب ... تكفكف كل ممتنع العطـــاف
ترى بين الصفوف لهن رشقـــا ... كما انصاع الفواق عن الرصـاف

وهو فى ذلك كله يصدر عن شاعرية تدربت على صوغ الشعر فى اطار التقاليد الفنيـــة الجاهلية .

والحق أنه كان بارعا فى صناعة أشعاره ، حريصا على التقاليد الفنية المنصعتـــه ، ومن ثم تشيع سيطرة هذه التقاليد على قصائده ويبرز فيها التيار الفنى الجاهلى بصـــورة

---

(١) الديـــوان ص ٢٤٤ .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

واضحة ، والأمثلة على ذلك في شعره كثيرة . أنظر الى هذه القصيدة التي يفتتحهـــا بمقدمة غزلية تقليدية تعبر فيها زوجته بمشيب رأسه فيذكرها أن المشيب قد أصابها واياه ، ونجده بارعا في تشبيهه المشيب بسهام أصابت نصالها شعر رأسه فبدلت لونه فذهب سواده وفي بياضه ، يقـــول (١) :

ألا بكرت عرسي تلوم وتعـــذل ... وغير الذي قالت أعف وأجمـــل
ولما رأت رأسي تبدل لونـــه ... بياضا عن اللون الذي كان أول
أرنت من الشيب العجيب الذي رأت ... وهل أنت مني ويب غيرك أمثـل
كلانا علته كبرة فكأنمـــــا ... رمته سهام في المفارق نصـــل

ويخرج من هذه المقدمة الى الحديث عن الخمر ، وتجارها ، وقد يظن أن حديثه عن الخمر يرجع الى أصل قديم في شعره الذي أنشده في الجاهلية ، لكن الأرجح أنه يتحدث عنها من قبيل حرصه على التقاليد الفنية لصنعته ، ومن ثم نراه يذكر أنه لا يشربها حتى تذهب بعقله ، لأنه لا يعبس ولا يعربد ، يقـــول :

ولقد أشهد الكأس الروية لاهيـــا ... أعل قبيل الصبح منها وأنهـــل
يمازجنها لين غير فاحـــــش ... بماء رقاب التجار معـــذل
اذا غلبته الكأس متعبـــــي ... حصور ولا من دونها يتبتـــل

ويتحدث بعد ذلك عن الرحلة والفيافي المقفرة التي يجتازها فلا يجد فيها ســـوى الذئاب ولا يسمع الا همهمة لا يفهمها قد يكون مصدرها عزيف الجن ، ويفصل في صورة هذه الصحراء القاحلة فنجده يذكر أنه ماكاد يقترب من الذئب حتى بدت ملامح القحط في وجهه هذا الحيوان الذي اشعر لرقة غريب يطرق هذه الفيافي التي لا يجد فيها ما يسد رمقـــه الا ما قد يجده في طريقة من عشب وأشلاء ، وهذه تتوفر له في الشتاء أما في الصيـــف فينهزل ويجهد لندرة الطعام ، حينئذ تبرز عرق ساقه وكأنها أوتار ، وذلك امعانا مـــن الشاعر في تصوير ضعف هذا الحيوان ضيقا . ويضيف الى هذه الصورة ، صورة غراب دقيق الساقين أعرج تعبث به الريح ، حاد البصر يلتقط حبا ما غيبه الثرى بمنقار حاد ، ويذكر أن الذئب الهزيل والغراب الأعرج كانا يقتربان منه لكنه خيب أملهما اذ أنهما طمعا في غير مطمع ، فهما يترقبان الخاخ الذي سيحفه رحاله عسى أن يتخلف منه بعد رحيله مـــا يطعمان منه ، يقـــول :

---

(١) الديوان ص ٤١ وما بعدهـــا .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

وصهباء مذكار كأن دبيبها ... بحيه حنان الطير نبل بمنصل
حديث أناسي فلما سمعته ... اذا ليس فيها لي فأنصت أنصل
تطمت بملهوني بها متفائل ... من الطلس أحيانا بحب وبيسل
يحب دنو الأنس منه وما به ... الى أحد يوما من الأنس منزل
تقرب حتى قلت لم يدن هكذا ... من الأنس الا جاهل أو مغفل
مدى النهل تغشاني اذا ما وجرته ... فتدمر برة من وجهه وهو مقبل
يصور بأدغال الضراء اذا خدا ... يصول ويغني بالجهاد ويشمل
تراه سمينا ماهنا وكأنه ... حبي اذا ما عاف أو هو أهزل
كأن نساء عرسه وكأنه ... اذا ما تعطى وجهه الريح يحمل
وحمش يصير القطتين كأنه ... اذا ما مشى مستكرة الريح أفزل
يكاد يرى ما لا ترى عين واحد ... يثير له ماغيب الترب معمل
اذا حضراني قلت لو تعلمانه ... ألم تعلما أني من الزاد مرمل
غراب وذئب يخطران معي ... متى رأى مناخ سبيت أو منزلا فأنزل
أقاما على ما خيلت وكلاهما ... سيخلفني الذي كان يأمل
فلم يجد الا مناخ مطيه ... تجافى بها زور نحول وكلكل

ويخرج من هذا الوصف "القسمي" الى الحديث عن ناقته ، ويفصل في وصفها الحديث عن دقائقها وجيادها ، ونلاحظ أنه يصور هذه الأوصاف بصورة تلائم ما يحيط بناقته من صحراء جديبة قاحلة ، ويسترسل في أوصافه الى خاتمة القصيدة التي تخلو تماما من الخيوط الاسلامية والحق أننا لانجد من هذه الخيوط سوى قسمه بالله عز وجل وحديثه عن عزمه التعلي بخلق الاسلام وان الله سيحفظه من الملمات التي يلقاها في هذه الصحراء ذلك في أبيات ثلاثة ما يلبث أن يخرج منها الى الحديث عن الصحراء والناقة وكواكب السماء ، يقول في وصف ناقته :

وأتلع يلوي بالجديل كأنه ... عسيب سقاء من سيحة جدول
ويضطرب من خاضع الطرف خائف ... لما نضح الأرض القراء وحمحل
أشد قلوصي واكتلأت بصيرتي ... وأمرت نفسي أي أمرئ أنت مرسل
فحطت سريعا لم يخنها فؤادها ... ولا عينها من خشية السوط تغفل
يقطع سير الناعجات عذيلها ... نجاء اذا اخلب النجاء المحمل
منفجة الدفين طين لحمها ... كما طين بالفاحي من اللين مجدل

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

وانظر الى قصيدته العينية القديمة التي يناقض فيها مزرد بن ضرار ، تجده يفتتحها بالمقدمة الطللية التقليدية وذكر المنازل الدارسة والديار المهجورة التي كان يشهد فيها الشعر ، يقول : (١)

أتعرف رسما بين رهمان فالرقم ... الى ذي مراهيط كما خط بالقلم
عفته رياح الصيف بعدي بسورها ... وأندية الجوزاء بالويل والديم
ديار التي بتت فؤادا وصيتها ... وكنت اذا ما الحبل من خلة صرم

ثم يخرج من هذه المقدمة الى ذكر الناقة التي وصفها في بيت واحد يذكر فيه انها ضامرة صلبة تشبه حرف الجبل في عدتها وصلابتها ، يقول :

فزعت الى وجناء حرف كأنها ... بأقرابها قار اذا جلدها استحم

ويخرج بعد ذلك الى غرضه في القصيدة وهو الفخر بقومه من بعد ، وبأبيه زهير ابن أبي سلمى ذلك الشاعر الذي ظل مبرزا في قومه وقصد القصائد الذائعة الصيت والتي دارت على كل لسان ، وأنه انشد الشعر في كرام القوم واستحسن ملوك الفرس باشعاره التي ستبقى أبد الدهر ويذكر كيف كان أبوه يدافع عن قومه آل ذبيان حين تلم بهم الملمات ويطمع فيهم الطامعين ، والشاعر في ذلك انما يؤكد ليزرد تفوقه في قرض الشعر اذ يريد أن يغيظه أنه يقلم الشعر من أبيه الذي لا يباريه شاعر آخر ، ويؤكد له أن أشعاره تشبه تلك الأشعار التي طافت الآفاق من قصائد أبيه ، يقول :

فان تسأل الأقوام عني فانني ... أنا ابن أبي سلمى على رغم من رغم
أنا ابن الذي قد طاف شرقي حجة ... فلم يخز يوما في معد ولم يلم
وأكرمه الأكفاء في كل معشر ... كرام فان كذبتني فاسأل الأمم
أتى العجم والآفاق منه قصائد ... بقين بقاء الوحي في الحجر الأصم
فأعطى حتى سات مالا وهمة ... وورثني اذ ودع المجد والكرم
وكان يحامي حين يتنزل لهمه ... من الدهر في ذبيان ان حوضها انهدم
أقول عبيهات بما قال طالما ... بهن ومن يشبه أباه فما ظلم
وأشبهته من بين من وطئ الحصى ... ولم يتزعني عنه خال ولا ابن عم

ويفخر بقومه ويذكر انتصارهم على قوم مزرد في دفاعهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك لأن مزردا عيره بموقفه من الرسول في أول الاسلام ، يقول :

---

(١) الديوان ص ٦١ وما بعدها .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

أعيرتني مرا مريرا وبعضـــــرا ... كراما بنوا لي المجد في يافخ أهم
هم الأطول مني حبيكحوانني ... من المزنمين الضاربين بالكـــــور
هم ضربوكم حين جزتم عن الهدى ... بأسيافهم اسقتم على القـــــوم

ويستطرد في ذكر ماضي قبيلته وما تحقق لها من مجد وأن هذا الماضي الكريـــم يقابله حاضر طيب لأنهم أبلوا البلاء الحسن مع الرسول . ونجده يردد معاني الفخر التي وجدناها في العصر الجاهلي من قبل . فقومه يتسمون بالقوة في الحرب ويحفظـــون حقوق الجوار وان كثرتهم سادة لا يبخلون في عطائهم ولا يباريهم أحد في فعل الخيـــر نجده يستفيض . يقول :

هم منعوا حزن الحجاز وسهلـــه ... قديما أجلوا أباك عن الحـــــي
هم الأسد عن الباس والحقد في القرى ... وهم عند عقد البارقين بالذمم
فكم فيهم من سيد متوســـــــع ... ومن فاعل للخير ان هم أو همـــم
متى أدع في لؤي وشان يأتـــني ... مساعير حرب كلهم سادة دهـــم

وأنظر الى قصيدته الغائية التي يفتتحها بمقدمة يأسف فيها على الشباب الذي ولـــى ويذكر أن الشيب قد ألم به وزوجته التي كثر عتابها له فضاق بها ولكنه يتذرع بالصبـــر (١) يقـــول :

بان الشباب وأمسى الشيب قد أزفـا ... ولا أرى لشباب ذاهب خلفـــا
عاد السواد بياضا في مفارقـــــه ... لا مرحبا بهذا اللون الذي ردفا
ما هرها بعدنا أبيضت مفارقهـــا ... لا الود أفرده منها ولا اللطفـــا
لو أنها أذنت بكرا لفرقتنـــــا ... يا عيد ما الله أولى أن تخافـــا

ويخرج من هذه المقدمة التي تلفها سحة من الحزن . الى وصف الطريق . وهـــو طريق واضح مشته الآيل وتركت على أديمه آثار كالحصير البيدل . وترى فيه الطير الهزيـــل التي أحبها طول السفر . والبعير الذي كده حمل ثقيل ويم جنباته . ويذكر أن كـــل من يسير فيه يترك آثار سيرة التي يهتدي بها السابرون حتى أصبح طريقا لا يضل فيـــه أحد . وهو سهل لا ترى فيه نشوزا تعترض سيرك . وعلى حافتيه طيور تحلق وتســـبح لأنها أصبحا بسبحة . يقـــول :

---

(١) الديوان ص ٧٠ وما بعدهـــا .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

قد ترك العاملات الراسمات به ... من الأحزة فى حافاته خنقا
يهدى الضلول ذلول غير محترف ... اذا تكأده دوبه صفقا
يجتاز فيه القطا الكدرى ضاحيه ... حتى يؤوب سالا قد خلت خلفا
يستون طلسا خفيات تراطنها ... كما تراطن عجم تقرأ الصحفا

ويستطرد فى وصف هذه الطيور ، ثم يخرج الى الحديث عن رحلته وناقته التى حملته فى هذا الطريق اللاحب ، ويذكر أن ناقته سريعة لم تأبه بالحر الشديد الذى يكل فيه غيرها من النوق ، يقول :

يوما قطعت وواة سربت اذا ... ما ضارب الدف من جنانها عزفا
كلفتها حرة اللبتين ناجية ... قصر العشى تبارى أينقا صففا
أبقى التهجر منها بعد ما ابتذلت ... مخيلة وهيا باخلا كتفا

ويزيد الشاعر فى وصف دقائق الطريق ورحته ، فيتحدث عن زيج من التعام شاهدهما فى أثناء سيره ، ويصف ريشها الكثيف ، ويتتبع حركتها عند نبع الماء الذى نبت من حوله الأعناب وأشجار الحنظل ، يأكلون منها حتى تخضر أنوفهما ، يقول :

تبرى له هقله خرجاء تحسبها ... فى الآل مخلولة فى قرطف شرفا
ظلا بأقرية النفاخ يومهما ... يحتفران أصول المغد واللصفا
والشرى حتى اذا اخضرت أنوفهما ... لا يألوان من التنوم مانفقا

ويمضى الشاعر فى سرد طائفة من الصور المتحركة يشجل فيها تنقل النعامة والظليم وتأهبهما للعدو ثم طيرانهما الى رياض أنف لم يرعها أحد ، ويتتبع حركتها ويصف دقائقها حتى ينتهى من القصيدة ومن الصور الرائعة التى تفيض بالحركة والحياة قوله :

راحا يطيران معوجين فى عنق ... ولا يبيعان حتى يهبطا أنفا
كالحبشيين خافا من مليكهما ... يعض العذاب فجالا بعد ماكتفا
كالخالبين اذا ما صيها ارتفعا ... لا يحضران من الخطبان مانفقا
فاغترها فشأها وهى عاقلة ... حتى رأته وقد أوفى لها شرفا
يشمرت عودى بأنه دبر ... كأن ضاحى قشر عنهما أنفرقا
وقاربت من جناحيها وجلجلتها ... سكاء تثنى اليها لينا خصفا
كانت كذلك فى شأو ومنعه ... ولو تكلف منها مثله كلفا

وأنظر الى قصيدة أخرى لامية تتضح فيها براعة الصنعة وسيطرة تقاليدها الفنية الموروثة على

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

أشعاره وهو يفتتحها بمقدمة طللية تقليدية يذكر فيها الديار التي محت الريح معالمها ويتحدث عن صاحبته التي كانت تطيف بهذه الديار في الأيام الخوالي ، ويشبه عينيها بعيني الظبية المكحولة كحلا طبيعيا ، ونحس في هذه المقدمة بحنينه الى صاحبته التي لا تفارق صورتها خياله ، ويصف جسدها ويشبهها بجملة تشبيهات يستمدها من أشياء حسية ، فساقاها كالبردتين في نعمتها وبياضها وصفائهما واستوائهما ، تخطوان على نبت طيب أصابه الندى فأصبح صافي اللون طيب الرائحة ، ويتحدث عن الليالي التي قضاها معها هناك ، يقول (١) :

أمن أم شداد رسوم المنازل ... توهمتها من بعد ساف ووابل
وبعد ليال قد خلون وأشهر ... على أثر حول قد تجرم كامل
أرى أم شداد بها شبه ظبية ... تطيف بمكحول المدامع خاذل
أغن غضيض الطرف رخص ظلوفه ... ترود بمعتم من الرمل هائل
وترنو بعيني نعجة أم فرقد ... تظل بوادي روضة وخمائل
وتخطو على برديتين غذاهما ... أها ضيب رجاف المشيات هاطل
وتفتر عن نور الثنايا كأنها ... أقاح تروى من عروق فلافل
ليالي نحتل المراض وعيشنا ... عرير ولا نرعى الى عذل عاذل

ثم يتحدث عن هجرها اياه بعد أن أصابه المشيب ، وهو قد تركها الى أخرى تحرص على الوصل ، يقول :

فأصبحت قد أنكرت منها شمائلا ... فما شئت من بخل وبين منع نائل
وما ذلك عن شيء أكون أجزمته ... سوى أن شيبا في الغدائر شامل
فان تصرميني وبب غيرك تصرمي ... وأوذنت ابذان الخليط المزايل
اذا ماخليل لم يصلك فلا تقم ... بثلمته وأعمد لأخر واصل

ويخرج من هذا الحديث الى وصف الطريق ، وقد شبهه بالحصير المحكم نسجه غمي وضوحه وبيانه ، واذا سرت فيه وقت الغروب سمعت أصوات قصيح من القطا يتهادين أزواجا بوفقة أفراخها حمر الحواصل لم ينبت عليها ريش ولا زغب ، وتتجه الى مكان بعيد ، يقول :

---

(١) الديوان ص ٨٩ وما بعدها .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

يستهلك يهدى الفلول كأنه ... خصور خلع بين أيدى الرواحل
متى ما تلمع اذا ما جهلته ... تواطن حوب مغرب الشمس نازل
روايا فراغ بافلاة تواسع ... تخطم فيها البيض حمر الحواصل
توائم اشباه بغير علاية ... وضمن بمجهول من الأرض خامل

يتحدث عن الرحلة فى هذه الصحراء الرحبة التى تلوح فى النفس حين يراها طى ناقته ليلا ويصف ناقته النشيطة التى لا تفتر من فجر السرى والتعب ويتحدث عن دقائقها فيصف فقار ظهرها وضلوعها وكاهلها ويسطها وصريرها ويشبهها فى سرعتها كالنعام السراع بل هى أشد سرعة :

وخرق يخاف الركب أن يه لجوانبه ... يعضون من أهواله بالأنامل
مخوف به الجنان ، تعوى ذئابه ... قطعت بفتلاء الدراعين بازل
صموت السرى خرساء فيها تلفت ... لنبأة حق أو لغيبة باطل
تظل تسوح الرحل بعد كلالها ... لهن أطيط بين جوز وكاهل
رفيع المحال والضلوع نسيبه ... قوائم مرن ناشزات الغضائل
ذفرة تختال الرحل حرة ... تبارى قلائصا كالنعام الجوافل

يتضمن هذا الحديث وصفا لجماعة من الحمير الوحشى بيض البطون كأنها دون حركة تتدفق فيها المياه الرقراقة ، وهن لا يقضين مكانها دون حركة اذ يشتد طيها الحر فتلوذ بالفرار الى مكان ظليل بدماء وهناك يتربص لها الصائد ، وتحاول النجاة من حبائله ، ويستمر سيل هذه الصور الحية المتحركة يتدفق حتى نهاية القصيدة يقول :

كأن جريرى ينتحى فيه سحل ... من القريين الأتمرين فماقل
يغر الى الأرض الفضاء بعانة ... خماص البطون كالصعاد والذوابل
ونازحة بالقيظ عنها جحافها ... وقد قلصت أطبائها كالمكاحل
وظل سراة اليوم يرمى أمامه ... بربابة البحاء ذات الأطابل
وهم يورد الرسيس قصده ... رجال فهود فى الدجى بالمعابل
اذا وردت ماء بليل تعرضت ... مخافة رام أو مخافة حابل
كأن مد هدى حنظل حيث سرقت ... بأعطانها من لبها بالجحافل

والحق أن أشعار كعب تتضح فيها التقاليد الفنية للصنعة الشعرية بصورة كاملة ، من حيث أحكام البناء الفنى للقصيدة ، ومن ثم رأيناها على نفس النظام الرتيب الذى كانت

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

طبيعة القصيدة الجاهلية تحتوى القصيدة هنا على نفس الموضوعات الجاهلية التقليدية وان كان البحتري يكاد يتصدم هنا بأغلب ما يدور عليه شعره الوصفي الذي تبرز فيه بعض قدرته على صوغ شعره واحكام صنعته وقدرته على بعث الحركة والحياة في معانيه ومن ثم خرجت أشعاره كاملة المنهج دقيقة الصنع . وان عدنا أنظر الى القصيدة التي يفتتحها بالمقدمة التقليدية الطللية . وهي مقدمة لا تفارق قصائده في صدر الاسلام . يذكر فيها الأطلال والديار التي محت الريح رسومها فتهم على الفتى الحزين بعد أن كان يغشاها البهجة . ولقد يبكي عندما تذكر الديار . ولكنه اكتشف أن البكاء لا يجدي فيقول : (١)

أمن دمنة الدار أقوت سنينا ... يكيد نطاقت كلما حزينا

بها جرت الريح أذيالها ... فلم تبق من رسمها ما يبينا

فلما رأيت بان البكاء ... سقاه لدى دمن قد بلينا

زجرت على مالدى القلب ... من حزن وجيبه المتقنا

يخرج من المقدمة الى وصف ناقته التي يجوب بها دروب الصحراء . ويفصل - كعادته في وصفها . يذكر لونها وقوائمها وملابسها وهدتها . وأنها ليس لها هوى سوى راكبها يقول :

هذا لها جبة الليل ... قطا لا سقوطا ولا ذات عين لجونا

كأني عهدت بأنيابها ... نبوح جاءت جأبا عنونا

يثلب حفيا ترى كلبه ... ن قد حملته وأسرت جنونا

ويستطرد في أبياته فيتحدث عن الأتن . ويصف حركتها . وكان بارعا حقا في وصف ورودها الى الماء اذ قدم لنا هذه اللوحة التي تظهر فيها الأتن وهي تضرب من النبع وأسعفنا هنا في العناية بالحركة في معانيه . أشار الى الأتن وهن يشربن الماء كن يحركن أذنابهن . ليستكمل الصورة بتفاصيلها يقول :

وحاذرن وحب السقا ... وهيجهن فلما صدينا

وأعلقهن شاذ الثمار ... وما كن من شاذق يحسبنا

حسان الثنان بابط العثا ... ر ماء العناب جعلن البينا

يسبسبن بين أواني القطا ... وبين خبوه مأوا بطينا

---

(١) الديوان ص ٩٩ وما بعدها .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

ويستطرد في وصف الأتن وتجمعها حول الماء وتتضح دقة ملاحظته لحركتهن اذ يتتبعهن الى أن يأتي اليهن الصائد الذي ينتظرهن حتى يشربن ويثلن من الري ، ويحدد نوعه الفريدة التي لا تبارى في صلابتها ويصوب منها سهما على احدى هذه الأتن وقد دنت من الماء ، لكن السهم يخطئ الصيد ولم يكن من عادة هذا الصائد أن يخطئ فتقر الأتن خلفة من وائهن غبارا وتترك الماء حتى لا يدركهن الصائد ، فيأوين الى مكان أمين في الوادي والحق أن هذه الصورة تتلاحق فيها الصور المتحركة فتضفي عليها الحياة ويبتعد عنها الجمود ، وتلك دون شك براعة من الشاعر اكتسبها من دراسته الكاملة بأصول صنعته وانظر الى بعض هذه الصور في مثل قوله :

فأمسك ينظر حتى اذا ... دنين من الري أو قد رونا

تنحى بصفراء من نبعة ... على الكف تجمع أرزا ولينا

معدا على عجسها مرهفا ... فتيق الغرارين حضرا سنينا

فأرسل سهما على نقرة ... وهن شوارع ما يتقينا

فمر على نحره والسذوق ... ولم يك ذاك له الفضل دينا

فلهف من حسة أبصرته ... وولين من رهج يكتسينا

تهاوى حوافزهن الحصى ... وهم الصفور بها يرتمينا

تقلقهن سراة العشا ... ء أسرع من صوب المصد رينا

وعلى هذه الشاكلة قصيدته الرائعة التي يفتتحها بمقدمة غزلية تصوره حين تذكيره صاحبته ويذكر الأماكن التي كان يتردد عليها للقائها قبل ما حدث بينهما ، يقول (١) :

أبت ذكرة من حب ليلى تعودني ... عهاد أخي الحي اذا قلت أقصرا

كأن بخيطان العريف وفائل ... ذرا النخل تسمو والسيفين المشهرا

ألم تعلمي أني اذا وصل خلة ... كذلك تولي كنت بالصبر أجدرا

ثم يصف فرسة الأصيل الملون الذي يشبهه في سرعته حين يولي الأدبار من كلاب صائد رآها من بعيد ، يقول :

وتأمد ينذي كأن ذبابه ... أخو الخمر هاجت فوقه فتذكرا

هبطت بملبون كأن جلاله ... نضت من أدين ليلة الطل أحمرا

أمين الفحل هل اذا القوم أنسوا ... مدى العين شخصا كان بالصحر أبصرا

كتيس الاران الأعفر ارتجت له ... كلاب رآها من بعيد فأحضرا

---

(١) الديوان ص ١٢٢ وما بعدها .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

ويتحدث عن بئر مياه مهجورة لا أنيس بها يستقي منها ، ولا تصل اليها الوحوش والسباع ، ويحاول الرجال أن يدلوا فيها دلوهم ٠٠ الممنوع من الماء ـ ليستقوا من الماء التي يتساقط فيها الجوار ويرد النعام ليجعل لونها مصفرا ، فلا يشربون منه عوذلك امعانا في تصوير ما يحيط البئر من قحط وركود بعد أن هجرها القوم ، أيضا ان تلك الأراضي المهجورة المجهولة بهذا البئر يأبى الجمل السمين أن يسير فيها لفرط ما يحيط بها من قحط ، ويذكر أنه قد ترك هذه البقعة المهجورة وطيها اثار رحاله ، وكان رحيله منها في آخر النهار ، يقول :

وخالي الجها أورد تعالقي فاستقيا ... بسفرتهم من آجن الماء أصفرا
وغرق يحير العود أن يستبينه ... اذا أورد الجهولة التي أستدرا
ترى بحفافيه الوذاية ينتحي ... قياما يغارين الريد المنورا
تركته بعد من آخر الليل موهنا ... لديه وطلقا ان تغور وتسحرا
وشثن نواج ضمر جد ليلة ... كجفن المهاني قيها قد تحسرا
ومرقبة هطاء بادرت مقسرا ... لأسأس الأهباج أو أتنورا
على عجل مني غداة رددته ... ذرا الدخل واعتر النهار فأدبرا

والحق أن كعب بن زهير ، تلك بتقاليد مدرسة الصنعة الشعرية التي تعلمها من أبيه ، ويبرز ذلك في شعره الذي غلبت عليه موضوعات الوصف والفخر والمديح والحكمة وهاهو الجمل في معانيه ينفس الصورة النمطية الموروثة ولم تظهر في هذه الصورة سوى بعض الألوان الإسلامية الجديدة في المديح والحكمة ، وهي ألوان قليلة لم تكن طاغية في كل شعره ، انما جاءت مستوحاة في اطار الصورة التقليدية الموروثة ، ونظن أن سيطرة التقاليد الفنية الموروثة على شعر كعب انما جاءت من ايمانه بمذهب الصنعة والتدقيق في رسم صورة الشعرية ، ولو أنه كان يرسم هذه الصورة بشكل تلقائي على نحو صنيع شعراء الطبع الأخرى لنا صورا شعرية يغلب عليها التأثر بالمعاني والروح الاسلامية الجديدة وهذا ما نفتقده في شعره خاصة امتدت لتستغرق سنوات صدر الاسلام بكاملها ولتسجل جانبا من أشعاره في هذا العصر ضاع من يد الزمن ما أثر على غياب الأوجه الاسلامية الجديدة في شعره فلم تظهر الا في أبيات معدودة في قصائد قليلة ، ولكنها على أية حال تمثل نزوعا الا التجديد في اطار التقليد المتوارث لا يمكن اغفاله في شعر كعب ، فالقصيدة عنده ظلت محتفظة بالتقاليد الفنية الجاهلية المتوارثة من حيث الشكل والمضمون

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

مع تأثير طفيف بالمعاني الاسلامية جاء ممتزجا في اطار هذه التقاليد . ولعل هذا التمسك بالتقاليد الفنية الموروثة هو الذي جعل النقاد القدامى والمحدثين أثر العقيدة الاسلامية السمحة في شعره على الرغم من انتصار عموده في الاسلام على نحو ما مر بنا من قبل في صدر هذه الدراسة . فطبقة سلام يضعها في الطبقة الثانية (١) من فحول شعراء الجاهلية والمخضرمين وهو بكان بارز بالنسبة للتقسيم الطبقي للشعراء عند ابن سلام والذي يقوم على أساس أن للشعراء صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم (٢) " وابن قتيبة يصف زهيرا بأنه فحلا مجيدا (٣) " ومثل هذا الوصف يقوم أساسا على فهم ابن قتيبة للصنعة الشعرية التي تحدث عنها في صدر كتابه (٤) .

ويذهب بروكلمان الى أن نبوغ كعب في الشعر ظهر جدمسا غلب الاسلام على جزيرة العرب (٥) .

وان كان هذا الظن محل نظر ، فديوانه يشهد بأن نبوغه في الشعر قد سبق ظهور الاسلام حين خرجه أبوه ناظما في فن الشعر (٦) .

أما كارلونالينو (٧) فانه يجعل كعب بين الشعراء الذين قالوا الشعر في مدح النبي عليه الصلاة والسلام سواء أسلموا أن لم يسلموا ممن كانوا يفدون في الجاهلية على الملوك من هؤلاء الشعراء مع كعب الأعشى وحسان بن ثابت ، وعلى هذا يكون كعب من شعراء المديح التقليديين جاء مديحه للنبي وكأنه يريد مديح قائدا وسيدا من قومه

---

(١) طبقات فحول الشعراء ١/ ٩٦

(٢) المصدر السابق ١/ ٥ .

(٣) البصري والشعراء ج ١ (دار المعارف ١٩٦٦) ١/ ١٥٤ .

(٤) المصدر السابق ١/ ٧٥ وما بعدها .

(٥) تاريخ الأدب العربي (ج١ دار المعارف ترجمة عبد الحليم النجار) ١/ ١٥٦

(٦) أنظر الأمالي للمرتضى (ج١ ص ٩)

(٧) تاريخ الأدب العربي : كارل نالينو ١ ـ المعارف الطبعة الثانية) ج ١٠٤ ـ

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

لا نبيا جليلا أى بدين جديد . وعلى هذه الحالة كان من الممكن أن يتشبث بذكر الحماسة والشجاعة أى أنه لم يخرج من دائرة المديح المجاملين وعلى الرغم من هذه الأحكام فإننا نرى فى الخيوط الأساسية الجديدة فى بعض أعماله محاولات للتجديد وهو منذ أن عقد العزم على الدخول فى الاسلام مضى فى هذه المحاولات على نحو ما عرفنا فى تحليلنا لقصيدته "بانت سعاد" فالتقليد وان كان طابعها على شعره فان التجديد له مكانه جنب هذا العامل البدوى الأصيل .